أساسيات الممارسة العلمية في الفكر الخلدوني

Fundamentals of scientific practice in Khaldun thought

تاريخ الاستلام : 2019/08/21 ؛ **تاريخ القبول :** 2020/02/26

جاب الله زهية *

قسم علم الاجتماع والديموغرافيا
كلية العلوم الإجتماعية
جامعة الجزائر2،الجزائر-

ملخص

يهدف هذا المقال إلى الكشف عن أساسيات الممارسة العلمية عند ابن خلدون لتحقيق ذلك قمنا بعرض أفكاره الخاصة بالممارسة العلمية الواردة في مقدمته الشهيرة في محورين أساسيين: المحور الأول خصصناه لعرض أرائه حول علاقة الممارسة العلمية بالنشاط البشري، وذلك لان ابن خلدون ربط هذه الممارسة بالبشر وبالتجمعات البشرية. أما المحور الثاني فقد خصصناه لعرض قواعد الممارسة العلمية عند ابن خلدون، بحيث تطرقنا لتصنيفه للعلوم بنوعيها العقلي والنقلي مع مناقشة الأسس العلمية التي قام عليها هذا التصنيف، كما ركزنا على قواعد المنهج الخلدوني التي تعتبر أساسية في البحث العلمي في زمنه وفي زمننا. وقد دعمنا تحليلنا بمقارنة أفكار ابن خلدون بأفكار المفكرين الذين عايشهم والذين سبقوه زمنيا، كما حاولنا الكشف عن فعالية هذه القواعد في البحث العلمي الحديث.

الكلمات المفتاحية: : ابن خلدون؛ ممارسة علمية؛ تجمعات بشرية ؛تصنيف العلوم؛ قواعد المنهج.

Abstract

This article aims to reveal the basics of Ibn Khaldun's scientific practice, that's why we presented his ideas on scientific practice, which he mentioned in his famous introduction in two main axes: In the first axis, we gave his views on the relationship of scientific practice with Human gatherings, In the second axis, we presented the rules of scientific practice of Ibn Khaldun. So we presented his classification of science, and we discussed the scientific rules on which this classification was based. We have also discussed methodological rules that are essential in scientific research in its time and in our time. And we compared Ibn Khaldun's ideas to those of intellectuals of his time and those who preceded him, we also tried to reveal the importance of these rules in modern scientific research.

Keywords: Ibn Khaldun ; Scientific practice ; Human gatherings; Science classes ; Rules of method.

Résumé

Cet article vise à révéler les bases de la pratique scientifique d'Ibn Khaldun, pour y parvenir, nous avons présenté ses idées liées à la pratique scientifique qui ont été mentionnées dans sa célèbre introduction, dans deux axes principaux : dans le premier axe, nous avons présenté ses idées sur la relation de la pratique scientifique avec l'être humain, parce qu'Ibn Khaldun a lié cette pratique à l'homme et les groupes humains. Le deuxième axe, était consacré à la présentation des règles de la pratique scientifique d'Ibn Khaldun. Nous avons également comparé les idées d'Ibn Khaldun à celles des penseurs de son temps, et nous avons essayé de révéler l'efficacité de ces règles dans la recherche scientifique moderne.

Mots clés: : Ibn Khaldoun ; La pratique scientifique ; Rassemblements humains ; Classification des sciences ; Les règles méthodologiques.

* Corresponding author, e-mail: djaballah_za@gmail.com

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2020.

مقدمة:

عبد الرحمان ابن خلدون هو من المفكرين العرب الذين اجتهدوا في دراسة الواقع الاجتماعي بمختلف ميادينه الاجتماعية،السياسية،التاريخية،الاقتصادية،التربوية وغيرها من الميادين اعتمادا على الملاحظة بمختلف أنواعها والتجربة والمعايشة. وقد كانت مختلف أفكاره الواردة في مقدمته الشهيرة ناتجة عن البحث المستمر في الواقع الذي احتك به نتيجة رحلاته في شمال إفريقيا والأندلس وبلاد الشام، ونتيجة تواصله مع مختلف الفئات الاجتماعية مفكرين كانوا أو رجال السياسة والقضاة، أو مربيين وغيرهم من الأفراد، فضلا عن تكوينه في جامعة الزيتونة وجامعة القيروان،واحتكاكه بالمشايخ والعلماء، خاصة أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي الذي تعلم منه العلوم العقلية، إلى جانب إطلاعه على الفكر العلمي للذين عاصرهم والذين لم يعاصرهم. كل هذه العوامل ساهمت في تكوين شخصيته وقدراته العلمية،مما سمح له بالمساهمة علميا في مختلف الميادين الاجتماعية والسياسية والتاريخية والعلمية ...وتبرز قدراته العلمية في ما احتوته مقدمته الشهيرة وهي مقدمة الكتاب المسمى 'كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر'. وقد تضمنت مقدمته عدة أبواب تناولت بالشرح والتحليل عدة قضايا تخص الحياة الاجتماعية عامة،من العمران البشري بمختلف أنواعه ونشاطاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية والعلمية. وقد ركزنا على الباب السادس من هذه المقدمة الخاص بالعلوم والتعليم، وبعد ما دققنا في محتوى هذا الباب اهتمامنا أكثر بالجزء الخاص بالعلم وبالممارسة العلمية، وذلك لما لاحظناه من تطابق قواعد الممارسة العلمية التي قدمها في هذا الباب مع قواعد البحث العلمي الممارس في زمننا بالرغم من المدة الفاصلة بين زمنه وزمننا التي لا تقل عن سبعة قرون.

اهتمام ابن خلدون بالممارسة العلمية كان ناتج عن ما لاحظه من أخطاء شائعة في زمنه خاصة في التاريخ، ولتصحيح هذه الأخطاء بحث في الأسباب وتوصل إلى الحلول التي عرضها في القواعد العلمية التي يجب على الباحث أن يلتزم بها أثناء ممارسته العلمية،والقائمة على العقلانية والواقعية، والمستندة على التجريب والملاحظة المدعمة بأسلوب التحليل والمقارنة، للوصول إلى الاستقراء العلمي للحقائق انطلاقا من الواقع. الرحلات العديدة لابن خلدون وتنقلاته في الأمصار المعروفة بازدهار صناعة العلوم، واللجوء الى العلماء ذوي السمعة الطيبة علميا ومخالطتهم للحصول على المعرفة، قد ساهمت في إثراء خبراته في الممارسة العلمية، المبنية على أسس علمية وموضوعية وعلى قواعد المنهج العلمي، باعتبارها من العناصر الأساسية المساهمة في تنظيم البحث والفكر العلمي.

وعليه فإننا في هذا المقال سوف نحاول الكشف عن أهم العوامل التي حددها ابن خلدون لإنجاح الممارسة العلمية، والتي تسمح بتحقيق العقلنة والموضوعية في النتائج المتوصل إليها، وذلك اعتمادا على أهم مصدر في البحث في أفكاره وهي مقدمته الشهيرة، إلى جانب اعتمادنا على مراجع أساسية تناولت وحللت قواعد المنهج الخلدوني. كما سنحاول أثناء تحليلنا الكشف عن علاقة القواعد الأساسية للممارسة العلمية عند ابن خلدون بقواعد الممارسة العلمية لدى مفكرين عصره، للتعرف عن ما أخذه منهم وما يشترك معهم وما تفرد به وأبدعه، وذلك بالرجوع لما كتب حول ابن خلدون وحول مفكرين عصره لاستخلاص العلاقة بين تصوراته للممارسة العلمية والتصورات العلمية السائدة في عصره. فضلا عن محاولتنا لربط أساسيات الممارسة العلمية التي رسمها ابن خلدون بالممارسة العلمية في العصر الحديث، وذلك بمقارنة قواعد المنهج عند ابن خلدون بالقواعد المطبقة في البحث العلمي المعاصر.

وقد قمنا بتنظيم أهم المواضيع الفرعية التي تناولناها في هذا المقال في محورين

أساسيين: بحيث خصصنا المحور الأول لطرح أهم أفكار ابن خلدون التي تربط الممارسة العلمية بالنشاط البشري، وتباين هذه الممارسة بتباين كل من خصائص البشر وخصائص التجمعات البشرية وبظروفها، علما أن ميدان بحث ابن خلدون هو العمران البشري والتجمعات البشرية. أما المحور الثاني فقد خصصناه لعرض وتحليل أهم أفكار العلامة المتعلقة بالممارسة العلمية التي يعتبرها صنعة كباقي الصنائع، والتي تقوم على مبادئ علمية ومنهجية ضرورية للوصول إلى الحقائق العلمية التي تكشف الارتباط الموضوعي بين مختلف العناصر المكونة لهذه الحقيقة.

أولا: الممارسة العلمية نشاطا بشريا:

تناول ابن خلدون الممارسة العلمية كنشاط بشري من زاويتين: في الأولى تناول علاقة هذه الممارسة بالبشر كأشخاص وأفراد ممارسين للعلم وللتعليم، أما في الزاوية الثانية، فقد تناول علاقة هذه الممارسة بالتجمعات البشرية وبطبيعة عمرانها ويمكن التعرف على الطرح المقدم في كلا الزاويتين من خلال ما يلي:

1- علاقة الممارسة العلمية بالبشر:

في طرح ابن خلدون للعلاقة بين الممارسة العلمية والبشر، أكد على الارتباط القوي بين المتغيرين بطريقة مباشرة، باعتبار الكائن البشري على خلاف باقي الكائنات الحية يتميز بالعقل وبالقدرة على التفكير، اللذان يعتبران أساسيان للممارسة العلمية. وفي هذا الصدد يرى ابن خلدون "أن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكِنّ وغير ذلك، وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به"[1]، ولو لا هذا الفكر لكان الإنسان حيوانا مثل باقي الحيوانات وكان مصيره مثل مصيرها الطبيعي. غير أن تميزه بالفكر جعله يفكر في مصيره وفي ما يحيط به قصد استغلاله لتحسين ظروف معاشه وضمان وجوده، والعمران البشري هو أهم منتوج وصورة للتفكير في هذا المصير، ومستوى الحضارة التي تم بلوغها تعكس مستوى التقدم في هذا التفكير الذي ينعكس على مستوى الممارسة العلمية.

وإذا كان الفكر ضروريا لممارسة العلم، فإن ابن خلدون يرى أن العلوم تنشأ عن الفكر، إذ يقول في مقدمته "وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع ثم لأجل هذا الفكر وما جبل عليه الإنسان، بل الحيوان، من تحصيل ما تستدعيه الطّباع فيكون الفكر راغبا في التحصيل ما ليس عنده من الإدراكات،فيرجع إلى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة أو إدراكٍ أو أخْذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يُبلغونه لمن تلقاهُ. فيلقن ذلك عنهم ويحرَصُ على أخذه وعلمهِ." [2] فنشأة العلوم تكون استجابة لرغبة إنسانية في حب التطلع والدهشة بما يحيط بالفرد، والسعي لفهمه وإيجاد الإجابات للاستفهامات التي تحيط به عن ذاته ككائن إنساني،أو بما يحيط به في الحياة الاجتماعية والطبيعة، بالرجوع لما أنتجه أهل العلم في مختلف التخصصات من مختلف الحضارات للتزود وللاكتساب،أو بالاتصال بالعلماء الذين تلقوا العلم من السابقين واجتهدوا في حفظه أو تطويره مع حرصهم على تلقينه، علما أن ابن خلدون قد اتبع هذا الأسلوب في التعلم بحيث "لازم آخرين أخذ عنهم العلوم العقلية مثل أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي الذي اخذ عنه المنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية، حيث لازمه ابن خلدون لمدة ثلاث سنوات"[3]، وذلك بدافع الرغبة في التحصيل والاستفادة من الخبرة العلمية لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي الذي عرف باعتنائه بالرياضيات والعلوم العقلية وتفوق في علم المنطق ، ومن الخبرات التي اكتسبها هذا الأخير مِمَن سبقه.

وعن علاقة الفكر بالعلوم "نجد أن ابن خلدون يقر بأن هناك تفاعلا مشتركا بين الثقافة والتعليم مع الرقي العقلي، فالرقي العقلي يولد العلوم والمعارف عن طريق

نشاطه،ثم تعود هذه العلوم فتؤثر بها في العقل وترتقي به، وهذه العملية المتبادلة بين العقل والمعرفة عملية مستمرة لا تقف عند حد"[4] ،فبالفكر ارتقت البشرية إلى مستوى الإنسانية واهتدت إلى البحث عن ما يحسن معاشها ويسخر ما يحيط بها لخدمتها. هذا البحث كان سببا في نشأة العلوم، وتطورت بتطور القدرات والنضج الفكري والتحصيل المستمر، إما بالبحث أو بالنقل. وبالتالي فالعلاقة بين الممارسة العلمية والتفكير علاقة عكسية، بحيث كل طرف يؤثر في الطرف الثاني، فبالفكر تنشأ العلوم وتتطور وبالعلم يتطور الفكر وينضج ويصبح أكثر قابلية للإنتاج العلمي، هذا التحليل الذي قدمه ابن خلدون في عصره كثيرا ما كانت قاعدة اعتمدت عليها البحوث العلمية في عصرنا الحديث.

يرى ابن خلدون أن العلم والتعليم طبيعيان في البشر، باعتبار أساس العلم هو التفكير الذي يتميز به الإنسان، ووجوده في الحياة الاجتماعية والحياة الطبيعية يعتبران عاملان محفزان للتطلع ولفهم الواقع المحيط به، " ثم إن فكره ونظره يتوجه إلى واحدٍ من الحقائق وينظرُ ما يعرضُ له لذاته واحدا بعد أخر ويتمرن على ذلك حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكةً له، فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا. وتتشوف نفوس أهل الجيل الناشئ إلى تحصيل ذلك فيفزعون إلى أهل معرفته ويجيئُ التعليم من هذا، فقد تبين من ذلك أن العلم والتعليم طبيعي في البشر"[5]، ومادام الإنسان يتميز بالفكر وبالتفكير بكل ما يحيط به، فإن البحث عن الحقيقة هي رغبة ذاتية في نفس كل فرد عاقل مهما كان سنه أو اهتمامه ، كما أن الميل لتعلم الحقائق أو تعليمها تبقى أيضا سلوكا إنسانيا بالفطرة .

غير أن المهارة في ممارسة العلم حسب ابن خلدون لا تتم إلا بحصول ملكة، بحيث يقول في مقدمته "وذلك أن الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكةٍ في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله.وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذقُ في ذلك الفن المتناول حاصلا"[6]، هذه الملكة التي يتميز بها الممارس للعلم تكون دافعا نفسيا وفكريا محفزا للبحث عن الحقيقة وفي استهلاكها وفي تلقينها . كما حاول ابن خلدون أن يفسر هذه الملكة من خلال قوله " وهذه الملكة هي في غير الفهم والوعي، لانا نجد فهم المسالةِ الواحدةِ من الفن الواحد و وعيها مشتركا بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدئٌ فيه وبين العامي الذي لم يعرف علما وبين العالم النّحْرير. والملكة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون من سواهما، فدلّ على أن هذه الملكة غير الفهم والوعي." [7] وإذا كان الفهم والوعي مهمان للتعلم وللتعليم، فإن الملكة أساسية لتحقق الوعي والفهم باعتبارها استعدادا ذاتيا وفكريا تلتقي فيها كل من الموهبة والقدرة والتحكم والمهارة والدقة، التي ترتقي بمستوى الوعي والفهم إلى عمق الحقائق.

وقد أشار ابن خلدون إلى طرق تدعيم هذه الملكة بحيث قال : "و أيسر طرق هذه الملكةِ فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلميةِ فهو الذي يقرب شأنَها ويُحَصلُ مرامها، فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثيرِ من أعمارهم في ملازمة المجالسِ العلميةِ سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتُهُم بالحفظِ أكثر من الحاجةِ، فلا يحصلونَ على طائلٍ من ملكةِ التصرفِ في العلمِ والتعليمِ"[8]. فتبادل الأفكار والنقاش المستمر علميا يساعد على توسيع مجال العلم في الاكتساب والإلقاء مما يزيد من الرصيد المعرفي الذي يدعم هذه الملكة، باستعدادات نفسية وقدرات معرفية ومهارات تمحيصية . أما الحفظ فهو مسيء لهذه الملكة بحيث لا يتمكن صاحبها إلا من إعادة تقديم ما القي عليه دون تقييم ولا تدقيق ولا حتى مناقشته، وبالتالي تنحصر

الممارسة العلمية لديه في استرجاع ما حفظه ويفقد بذلك القدرة على المناظرة والنقاش لقصور الملكة على الحفظ فقط.

ممارسة العلم لا تتوقف فقط على اكتشاف وتفسير الحقائق بأساليب موضوعية اعتمادا على أدوات البحث، وإنما تستمر إلى تعليمه وتلقينه لطالب العلم مهما كان هدفه، لهذا يعتبر ابن خلدون تعليم العلم صناعة لا يجيدها إلا المتحكم في العلم والمتمكن من تلقينه لغيره. وقد جاء في مقدمته "ويدل أيضا على أن تعليمَ العلمِ صناعةٌ اختلافِ الاصطلاحاتِ فيه، فلكل إمام من الأئمة المشاهير في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها. فدلّ على أن ذلك الاصطلاحُ ليس من العلم وإلا لكان واحدا عند جميعهم. ألا ترى إلى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين ؟ وكذا أصول الفقه؟ وكذا العربية؟ وكذا كل علم يُتوجهُ إلى مطالعتِه تجد الاصطلاحات في تعليمه متخالفةً، فدل على أنها صناعاتٌ في التعليم والعلمُ واحدٌ في نفسه"[9]، كما يقول "اعلم أن الصناعة هي ملكةٌ في أمرٍ عملِيٍّ فكرِيٍّ"[10]. و يوضح عزيز العظمة في كتابه 'ابن خلدون وتاريخيته' هذه الفكرة قائلا أن "التعليم مهنة، لأنه يوفر الملكة التي تغدو ممارسة العلم بواسطتها ممكنة: وتتكون الملكة هنا من معرفة تامة بمبادئ العلم وإجراءاته وموضوعاته وكذلك القدرة على استنتاج خصوصياته من عمومياته"[11] وبالتالي فالملكة ضرورية لصناعة العلم، ليس فقط للتمكن في العلم واكتساب المهارة في ممارسته، وإنما هي ضرورية حتى في تلقينه وتعليمه للغير.

فصناعة تعليم العلم حسب ابن خلدون تتوقف على الإمكانيات والمهارات المادية والجسمية والفكرية التي يتميز بها الكائن البشري، والتي تساعده على التمكن والتحكم في هذه الممارسة، والتي بدورها تسمح بتحقيق أهداف التعليم.على هذا الأساس فإن تباين مردود التعليم يتوقف إلى حد بعيد على الإمكانيات المادية المتوفرة التي تساعد على ذلك، إلى جانب الإمكانيات والقدرات الذهنية التي يتوقف عليها بعد النظر في التفسير والتحليل والتأويل للحقائق، هذا فضلا عن مدى تقدم وانتشار العلم في العمران، وباختلاف هذه العوامل يختلف مردود التعليم مثل اختلاف مردود الصنائع الأخرى مهما كان طابعها حرفيا أو فلاحيا ...الخ.

2- علاقة الممارسة العلمية بالتجمعات البشرية:

يرى ابن خلدون أن فطرة اجتماع الإنسان ببني جنسه إلى جانب عجزه عن تحقيق متطلبات الحياة الضرورية من الأمن والرزق بمفرده، هي من العوامل الأساسية المساهمة في تشكيل التجمعات البشرية وتكوين العمران بشكليه البدوي والحضري. وإذا كان التعاون في التجمعات البشرية ضروريا لتلبية مختلف متطلبات العيش، فإن العلم نشاط ناشئ من التجمعات البشرية أيضا، وإن كانت ممارسته ليست ضرورية لوجود الإنسان مثل المعاش، إلا أن للعلم دور كبير في تنوير الإنسان وفي الارتقاء بوعيه وبممارساته، وفي ارتقاء التجمعات البشرية وأحوالها بصفة عامة . غير أن ممارسة العلم يختلف الإقبال عليها باختلاف طبيعة العمران، ومتطلبات أفراده، فإذا كان العمران البدوي يتميز بالبساطة وقوة العصبية فإن الاهتمام بالعلم وبالتعليم يبقى أمرا ثانويا مقارنة بالاهتمام بالمعاش، وقد حدد ابن خلدون معنى المعاش في مقدمته بأنه السعي للاسترزاق. أما في العمران الحضري عامة وفي الأمصار خاصة فإن طبيعة العمران وحاجات أهلها متباينة، فإذا كان عدد السكان في الأمصار متزايدا، تزداد الصنائع بزيادة حاجاتهم للمعاش، ومادام تعليم العلم صناعة حسب ما ذكر سابقا، فإن الحاجة لممارسته تفرضه حاجات ومتطلبات السكان " فمتى فضلت أعمالُ أهلُ العمرانِ عن معاشهم انصرفت إلى ما وراءَ المعاشِ من التصرُفِ في خاصيةِ الإنسان وهي العلوم والصنائعُ. ومن تشَوّفَ بفطرتهِ إلى العلمِ ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنةِ فلا يجد فيها التعليمَ الذي هو صناعيٌ، لفقدانِ الصنائعِ

في أهل البدوِ كما قدمناهُ، ولا بد له من الرحلةِ في طلبهِ إلى الأمصار المستبحرةِ شأنَ الصنائعِ كلها"[12]. فالانتقال والرحلة إلى الأمصار التي تأصل فيها العلم وانتشر بين سكانها وذاع صيت علمائها فيها، يعد أحد أساليب الحصول على العلم بالاحتكاك بعلمائها والأخذ عنهم، كما يعتبر احد طرق نقل العلم من الأمصار المزدهرة بالعلوم إلى الأمصار الأقل تمدنا والتي تفتقد لصناعة العلم . ويقدم ابن خلدون مثال نموذجي لكثرة العلوم أين يكثر العمران إذ ذكر في مقدمته "ونحن لهذا العهدِ نرى أن العلمَ والتعليمَ إنما هو بالقاهرةِ من بلاد مصرَ لما أنّ عمرانها مستبحرٌ وحضارتَهاَ مستحكمةٌ منذ ألاف السنينَ فاستحكمت فيها الصنائعُ وتفننت، ومن جملتها تعليمُ العلمِ"[13].

وذلك يدل على أن العلوم تكتسب بالاحتكاك بالمتعلمين وبالعلماء والمشايخ، كما تكتسب من السابقين ومن الأجيال الماضية والحضارات السابقة بالرجوع إلى ما تم إنتاجه من علم في مختلف فروعه، إلى جانب أخذه من مختلف الأمصار التي أعطت أهمية لهذه الصناعة.

ثانيا: قواعد الممارسة العلمية عند ابن خلدون:

حاول ابن خلدون في تناوله لقضايا العلم والتعليم الالتزام بمبادئ علمية ومنهجية، هادفا إلى وضع قطيعة معرفية مع بعض الممارسات السائدة في عصره والتي أدت إلى تزييف الحقائق التاريخية لعدم التزامهم بقواعد ومبادئ العلم أثناء دراستهم للواقعة التاريخية. ومن الأخطاء الشائعة في زمنه أثناء الممارسة العلمية والتي ذكرها في مقدمته هو الكذب في الأخبار، حيث قال "ولما كان الكذب مُتَطَرّقًا للخبرِ بطبيعتهِ وله أسبابٌ تقتضيه. فمنها التشيعات للآراء والمذاهب، فإنه النفسَ إذا كانت على حالِ الاعتدالِ في قبولِ الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظرِ حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيُّعٌ لرأيٍ قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميلُ والتَشيُّعُ غطاءً على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقعُ في قبولِ الكذِبِ ونقلهِ"[14]. هذه الأخطاء التي تشوه الحقيقة والواقع قد تفطن لها ابن خلدون مما دفعه إلى تحديد قواعد علمية ومنهجية للممارسة العلمية، لكن قبل عرضها يجدر بنا التطرق لتصنيف ابن خلدون للعلوم التي تعددت بتعدد ميادين العلم، مع تدعيم قراءتها بتحليل الباحثين المهتمين بدراسة الفكر العلمي عند ابن خلدون.

1– تصنيف ابن خلدون للعلوم:

مثلما اهتم ابن خلدون بالممارسة العلمية وبمميزاتها وبشروطها، سواء خصت الممارس للعلم والتعليم أو بظروف العمران التي قد تشجعها أو تعيقها، باعتبار تعليم العلم صناعة تشجع في بعض الأمصار وتتراجع في أمصار أخرى، اهتم أيضا بتصنيف العلوم التي انتشرت في عصره كالأدب والدين والطب والكيمياء وغيرها من العلوم، "ويتفق مؤرخو الفكر المغربي والأندلسي على أن القرن الثامن للهجرة الرابع عشر الميلادي، هو العصر الذي عاش فيه ابن خلدون كان قرنا خصبا كثير الإنتاج عميق البحث. فهو العصر الذي عاش فيه فطاحل العلماء والفقهاء وفحول الشعراء والأدباء الذين انصهروا في بيئة الشمال الإفريقي ....ونذكر من هؤلاء العلماء إضافة الى ابن خلدون وابن الخطيب، وابن مرزوق، وابن البناء المراكشي، وابن رشيد السبتي، وإبراهيم بن الحاج النميري وابن بطوط، وغيرهم من الأعلام الذين تواجدوا على الساحة العلمية والأدبية للمغرب العربي"[15]

التعدد في تخصصات العلوم التي انتشرت في عصره جعله يقدم تصنيفا

لها[16]: الأول هي العلوم الحكمية الفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها و وجوه تعليمها، حتى يقفه نظره ويحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكرٍ. أما الثاني فهي العلوم النقليةُ الوضعيةُ، وأصل العلوم النقلية كلها من الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة من الله ورسوله، وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيئها للإفادة ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملّةِ وبه نزل القرآن.

وقد صنف العلوم النقلية إلى: علم التفسير، علم القراءات، علوم الحديث، أصول الفقه، الفقه العقائد الإيمانية، العلوم الإنسانية وتشمل بدورها علم اللغة، علم النحو، علم البيان،وعلم الآداب. كما صنف العلوم العقلية (علوم الفلسفةِ والحكمةِ) إلى أربعة علوم[17]: علم المنطق فائدته تمييز الخطأ من الصواب، العلم الطبيعي يتم فيه النظر في المحسوسات من الأجسام العنصرية والمكونة عنها من المعادن والنبات والحيوان والأجسام الفلكية، العلم الإلهي ينظر في ما وراء الطبيعة والروحانيات، التعاليم وهو العلم الرابع الناظر في المقادير ويشمل أربعة علوم: علم الهندسة، علم الارتماطيقي وهو معرفة ما يعرض للكم المنفصل الذي هو العدد، علم الموسيقى، علم الهيئة وهو تعيين الأشكال للأفلاك وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب...

"أصول العلوم الفلسفية سبعة: المنطق وهو المقدم منها، وبعده التعاليم، فالارتماطيقي أولا، ثم الهندسة ثم الهيئة، ثم الموسيقى، ثم الطبيعيات، ثم الإلهيات. ولكل واحدٍ منها فروع تتفرع عنه، فمن فروع الطبيعيات الطب، ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات، ومن فروع الهيئة الازياح وهي قوانين لحساب حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك. ومن فروعها النظر في النجوم على الأحكام النجومية ونحن نتكلم عليها واحدا بعد واحدٍ إلى آخرها"[18].

إلا أن المتمعن في تصنيف ابن خلدون والدارس لقواعد المنهج العلمي الخلدوني يدرك ما توصل إليه الدكتور عبد الغني مغربي الذي صرح بأن"ابن خلدون يرفض التخصصات الشكلية والعقلانية بصفة بحتة لأنه ليس بإمكانها أن تقدم للإنسان إجابات ملموسة على حالته وعلى مستقبله"[19]. وما يفسر النزعة الواقعية لابن خلدون هو اعتباره العلم صنعة لها مردودها على تحسين أحوال البشر في واقعهم المعاش. كما قدم د.مغربي عبد الغني في كتابه 'La pensée sociologique D'IBN KHALDOUN'، مقارنة لتصور ابن خلدون مع تصور كارل ماركس فيما يخص الثنائية المادة والروح، بحيث استنتج أن "موقف ابن خلدون من جدلية 'الفكرة-الحقيقة' بإمكانها أن تقارب تصور كارل ماركس الوارد في كتاب l'idéologie allemande (1969)، الذي يرى أن - الحقيقة الموضوعية ليست مسالة نظرية وإنما هي مسالة تطبيقية، فبالتطبيق يستطيع الإنسان البرهنة على الحقيقة وعلى فعالية أفكاره- (ص138)، كأننا نقرا لابن خلدون شخصيا وذلك لاهتماماتهما المتشابهة.هذه القاعدة التي وجهت كل عمل كارل ماركس قد وجهت أيضا ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع .التشابه الذي وجدناه لدى الباحثين هو ملفت للنظر مما يثبت التحديث الحقيقي الذي يميز المقدمة"[20].هذه الخلاصة التي توصل إليها د.مغربي تؤكد أهمية التصور الخلدوني حول ضرورة الانطلاق من الواقع لدراسة الواقع قصد اكتشاف الحقائق الواقعية التي تخدم الواقع. ويضيف د.مغربي في تأكيد الاتجاه الواقعي لابن خلدون حين يقول "لقد انتقد صاحب المقدمة بشدة الميتافيزيقا لعدم فعاليتها العلمية"[21] من هنا يمكننا تدعيم تصنيف ابن خلدون للعلوم، فالدينية منها والشرعية يرجع في تناوله لها دائما للقرآن وللسنة النبوية في

تناول القضايا الدينية والاجتماعية التي لها نصيب في التفسير الديني. أما بالنسبة للعلوم الفلسفية القائمة على العقلنة والبرهنة فهو يعطي الأهمية للعلوم التي يمكن البرهنة على حججها بالملاحظة وبالتجربة لتفسير الواقع المادي، على هذا الأساس انتقد ابن خلدون الميتافيزيقا التي لا يمكن البرهنة عليها للتأكد من مصداقية تحليلها ونتائجها.

إن تصنيف ابن خلدون للعلوم إلى صنف نقلي وآخر عقلي يعكس تأثره بأبي حامد محمد الغزالي أحد أشهر علماء عصره، حسب ما ورد في 'كتاب منطق ابن خلدون' في ضوء حضارته وشخصيته للدكتور علي الوردي، الذي ورد فيه أن "ابن خلدون يرى كالغزالي أن العقل البشري محدود وانه غير قادر على النظر في حقائق الكون إلا ضمن نطاق معين لا يجوز أن يتعداه." [22] فإذا كان العقل البشري حسب الغزالي يلاحظ ويقيم التجريب على ما هو موجود في الواقع، ويتوصل الى مستوى التجريد انطلاقا من الاستقراء الذي ينطلق من المحسوسات، فإن عالم الروحانيات والغيب التي تعكس قدرة الخالق في الخلق هي أمور يستحيل على الباحث الولوج فيها. ومن هذا المنطلق يظهر تأثر ابن خلدون بالغزالي في تصنيفه للعلوم إلى علوم نقلية قائمة على الكتاب والسنة لا دخل للإنسان في سن تعاليمها الشرعية، يتناولها بفكره ليدرك مضامينها،أحكامها وتعاليمها ويتحقق من صحة الإسناد والتفسير، وصولا إلى معرفة أحكام الله تعالى وسنة نبيه، وتطبيقها روحيا وبدنيا في العلاقة مع الله تعالى في العبادات وفي العلاقة مع الناس في المعاملات.

أما الصنف الثاني للعلوم الذي تدخل يد الإنسان في نشأتها وتطويرها اعتمادا على قدراته الفكرية التي تميز بها، فقد صنف علم المنطق في المرتبة الأولى من سلم ترتيب العلوم العقلية، "ما يفسر لماذا يعتبر المنطق أكثر العلوم العقلية أصالة، إنه القاعدة التي ارتكزت عليها العلوم الأخرى لتكوين صورها، تماما مثلما كان القرآن والحديث القاعدة التي ارتكزت عليها العلوم الوضعية جميعا. المنطق هو العلم المطلق والقاطع في ميدان العلوم العقلية، وسبب ذلك هو أنه يسير وفق خط مواز لطبيعة العقل"[23]. فالعقل لا يقبل الحقيقة إلا اذا توفرت الشروط والحجج التي تقيم الدليل عليها، وبدون منطق لا وجود للعلوم العقلية. وفي هذا الصدد يقول د.علي الوردي "ابن خلدون كان يؤمن بوجود ثلاث أنواع من المنطق : الأول المنطق الكشفي هو الذي يصلح للبحث في الأمور الإلهية والروحية وما أشبه. الثاني المنطق العقلاني وهو الذي يصلح لبحث الأمور القياسية كالهندسة والحساب وما أشبه. الثالث المنطق الحسي وهو الذي يصلح لبحث الأمور الاجتماعية والسياسية وما أشبه"[24]، فإذا كان الهدف من المنطق حسب ابن خلدون هو التمييز بين الخطأ والصواب، فإن القواعد الفكرية التي تسمح بذلك قد طبقت على كل مستويات التفكير من المجرد الغيبي والروحي الى المجرد القابل للقياس الى ابسط مستوى وهو مستوى المحسوس القابل للملاحظة والتجربة.

غير أن المهتمين بدراسة أصناف العلوم عند ابن خلدون، بالرغم من المؤيدين لهذا التصنيف، إلا أن هناك أراء أخرى تناولته من زاوية نقدية بحيث قرأت الاتجاه المناقض لهذا التصنيف، قد يكون لانتشار هذا التصنيف في زمنه أو لتباين الأسس التي على أساسها تم هذا التصنيف. وفي هذا السياق يقول عزيز العظمة في كتابه 'بن خلدون وتاريخه' أن " هذه المعالجة المنطقية للعلوم الوضعية، ومن ثمة الربط بينها هي الدليل على الحس المنهجي لدى ابن خلدون، فطريقة ابن خلدون في عرضها طريقة فريدة، ولو كان تعدادها لا يلفت النظر كثيرا، كما أنه ليس ثمة ابتكار في عرض علوم الحكمة العقلية وتمييزها من العلوم الوضعية النقلية. إن تمييز كل عالم بعلمه يتطابق مع الوجود النموذجي لهذه العلوم المتميزة وذات الحدود الواضحة

تماما."[25].ويقول أيضا "غير أن تصنيفه للعلوم لا يستحق المكانة التي تكاد أن تكون الميتافيزيائية المعطاة له من قبل كثير من المعلقين. فهو ليس بالتصنيف النهائي بشكل مطلق، إنما هو بالأحرى أحد تصنيفات العلوم الكثيرة والشائعة في الثقافة التي يمت لها الكاتب ، بل حتى أنه يقلل من قيمة ما يراه البعض على أنه الحد الفاصل بين هذا التصنيف والتصنيفات المشابهة القائمة على التفريق بين علوم الحكمة والعلوم الوضعية من جهة، وبين تلك التي لا تقبل تفريقا كهذا من جهة أخرى"[26]·إذا بالرغم من براعة ابن خلدون في تناوله الموضوعي والمنطقي للأسس التي تم عليها تصنيفه للعلوم عقلية كانت أم نقلية، إلا أن تناول هذا التصنيف بالتحليل والتمحيص قد دفع البعض إلى تبني اتجاهات نقدية لهذا التصنيف من زاوية أنه تصنيف قائم في زمنه وفي بيئته. لهذا تعرض عزيز العظمة للأسس التي على أساسها يتم تصنيف العلوم بحيث يتغير التصنيف من مفكر إلى مفكر أخر وفق الأسس أو القواعد المعتمدة في التصنيف، ويوضح ذلك بمثال إذ يقول "فعلى سبيل المثال صنف الغزالي العلوم بما لا يقل من خمسة طرق وحسب خمسة معايير : المنهجي، الصوري، الشرعي، المادي والنفعي أخلاقيا. فالعلوم تتميز بعضها عن بعض بحدودها التي تفرق نماذج بنياتها،كما أن الطريقة التي تصنف بها ضمن أنواع مختلفة تتوقف على الغرض من العمل التصنيفي وسياقه"[27].ولا يكتفي عزيز العظمة بنقد تصنيف ابن خلدون إما لشيوع هذا التصنيف في زمنه أو لتباين المعايير التي على أساسها يتم التصنيف، وإنما تعمق في التحليل النقدي لمضمون العلوم الوضعية، بحيث قال: "يبدأ تصنيف العلوم الذي تورده لنا المقدمة على نحو تعليمي، بالعلوم الوضعية. وهنا يهمل المؤلف العلوم الوضعية والدينية لدى غير المسلمين لا لأنه كان معنيا بتقديم وصف للعلوم التي كانت شائعة في عصره وحسب، بل لان الدين الإسلامي يمثل بالنسبة للأديان السماوية الأخرى ما يمثله القران بالنسبة للكتب المقدسة وكذلك ما تمثله رسالة محمد بالنسبة لكل من سبقه من الأنبياء، أي أن رابط اللاحق بالسابق هو رابط نسخ"[28]. رغم انتقاد عزيز العظمة لتصنيف إبن خلدون للعلوم الوضعية لعدم تناوله للأديان السماوية الأخرى إلا أن حفظه للقرآن وتنقلاته بين دول شمال إفريقيا التي عرفت انتشار الدين الإسلامي بين أفرادها، جعله يهتم بالدين الإسلامي وبالسنة النبوية بدل الاهتمام بالديانات الأخرى، و هذا لا يقل من القيمة العلمية لتصنيف ابن خلدونّ، أما بقية العلوم المصنفة حسب ابن خلدون ضمن العلوم العقلية، فقد أشار إلى عدة مجالات علمية أساسية تتفرع منها تخصصات فرعية، وهو تصنيف شامل لعدة علوم قائمة في زماننا بمناهجها وأدوات بحثها كالفلسفة والعلوم الطبيعية والعلوم الدقيقة والعلوم الفنية... التي تتفرع بدورها إلى تخصصات علمية كالطب من العلوم الطبيعية والرياضيات من العلوم الدقيقة، والموسيقى من العلوم الفنية وغيرها من العلوم.

إذا تصنيف ابن خلدون للعلوم نقليه كانت أم عقلية، قائمة بصفة خاصة على الفكر الذي يعتبر مصدرا أساسيا لنشأة العلوم، وعلى توفر ملكة تكون دافعا نفسيا وعقليا في الإحاطة بمبادئ وقواعد العلم والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله على حد تعبير ابن خلدون.

2- القواعد العلمية والمنهجية للممارسة العلمية عند ابن خلدون:

الممارسة العلمية تنظم بمبادئ منطقية وعقلانية يقوم على أساسها فهم وتفسير الواقع، وقد حاول ابن خلدون تحديد بعض القواعد الأساسية في الفكر العلمي والتي تتمثل في:

- مبدأ السببية:

يقول ابن خلدون في مقدمته أن "الفكر يدرك الترتيب بين الحوادث بالطبعِ أو

بالوضع،فإذا قصد إيجاد شيء من الأشياء، فالأجل الترتيب بين الحوادث لا بد من التفطن بسببه أو علته أو شرطه"[29]. فوجود أي شيء هو نتيجة حتمية لسبب أدى إلى وجوده،علما أن الأسباب يمكن أن تكون فطرية وطبيعية، كما يمكن أن تكون وضعية خطط لوجودها حتى تأثر على الهدف المرغوب فيه، بمعنى أن الأسباب دائما تسبق النتائج. هذه العلاقة المنتظمة بين السبب والنتيجة والتي تفطن إليها ابن خلدون،هي أهم مهارة تبنى على أساسها القوانين الوضعية.وقد حاول د.عبد الغني مغربي تفسير مبدأ السببية عند ابن خلدون في قوله أن " السببية عند ابن خلدون هي السببية الحتمية القائمة على العقلانية الواقعية"[30] والتي يمكن التحقق منها في الواقع اعتمادا على الملاحظة والتجريب للوصول إلى العلاقة الثابتة بين السبب والنتيجة. ويواصل د.مغربي في تفسيره لهذا المبدأ حين صرح بأن "ابن خلدون يقدم الحتمية السببية على أنها موضوعية أي أنها مستقلة عن إرادة الإنسان ، فهو يميز بين ما هو ضروري وما هو طارئ"[31].ومنه فتفسير د.مغربي لمبدأ السببية عند ابن خلدون كقاعدة أساسية في الممارسة العلمية تعكس الروح العلمية والملكة التي تميز بها ابن خلدون في تحديده لقواعد المنهج العلمي، بحيث لم يعرض السببية كمبدأ علمي فقط وإنما أعطاها تحليلا وتفسيرا يسمح بالارتقاء بها لمستوى العلمية، وذلك من خلال التحقق الامبريقي من العلاقة مع التزام الباحث بالموضوعية والفطنة الى المستوى الذي يسمح بالتمييز بين الارتباطات العابرة والارتباطات العميقة بين مختلف الظواهر.

كما يجدر الإشارة إلى أن أبو حامد الغزالي قد سبق ابن خلدون في تحليله لمبدأ السببية، بحيث "يذهب الغزالي بداية الى أن أساس التجريبيات هو اطراد الحوادث ربطا بين العلة والمعلول، ويقول إن هذا الاطراد ضرورة عقلية ينال بها الإنسان الثقة بصحة التجربة، إلا أن الاطراد نفسه عنده غير ضروري، فقد يحدث المقدم متأخرا والمتأخر متقدما"[32].فإذا كان أبو حامد الغزالي قد سبق ابن خلدون في تحليل العلاقة السببية، إلا أن طريقة تفسيرهما متباينة بالرغم من اتفاقهما في أهمية التحقق من العلاقة السببية للتحكم في الأحداث،بحيث يرى الغزالي أن النتيجة قد تكون سببا كما قد يكون السبب نتيجة، لهذا فالاطراد عنده غير مهم، إلا أن ابن خلدون كان أكثر عمقا في تفسير هذه العلاقة بالبحث في تسلسل وترتيب الأسباب، بحيث التحكم في الحوادث يقوم على التحكم في الأسباب المسببة لها.

ابن رشد هو الأخر سبق ابن خلدون في تناوله لمبدأ السببية، بحيث "كان يرى أن المادة والحركة ذات طبيعة أزلية، ويقول بان الحركة أبدية ومستمرة ، فالسبب في كل حركة حركة سابقة عليها، ولا محل للزمان دون الحركة ولا تستطيع أن تدرك الحركة بداية ونهاية"[33]، وبالتالي نلاحظ توافق كل من ابن الرشد وأبو حامد الغزالي في عدم أهمية الترتيب بين الأسباب والنتائج، من حيث كل سبب لنتيجة قد يكون نتيجة لسبب آخر، وتستمر الطبيعة تسير في هذا المنوال.غير أن ابن خلدون تعمق في تفسير العلاقة بين السبب والنتيجة، بحيث أشار إلى عدم إمكانية تقديم النتائج عن الأسباب في ترتيب وقوع الأحداث، وتعرض أيضا إلى تسلسل الأسباب، بحيث كل نتيجة يمكن أن تكون سببا لنتيجة أخرى، وقد نظم ترتيب العلاقة بين العناصر المسببة والنتائج كما يلي: "ولا يمكن إيقاع المتقدم متأخرا ولا المتأخر متقدما، وذلك المبدأ قد يكون له مبدأ أخر من تلك المبادئ لا يوجد إلا متأخرا عنه، وقد يرتقي ذلك أو ينتهي. فإذا انتهى إلى أخر المبادئ في مرتبتين أو ثلاث أو أزيد، وشرع في العمل الذي يوجد به ذلك الشيئ بدأ بالمبدأ الأخير إذا انتهى إليه المفكر فكان أول عمله، ثم تابع ما بعده إلى أخر المسببات التي كانت أول فكرته"[34].

ويظهر اهتمام ابن خلدون بربط المبادئ النظرية بالواقع، فالعلاقة السببية المتعددة الترتيب حاول تطبيقها في الواقع، وذلك بتفسير العوامل المسببة للوقائع انطلاقا من النتائج التي تتطلب التفسير، وفي حالة الوصول إلى الأسباب العميقة يبدأ العمل في التحكم فيها أولا ثم الأسباب الظاهرة وذلك لتنظيم النتائج. ويعطي لنا ابن خلدون صورة واضحة لهذا التسلسل نظريا وتطبيقيا، إذ يقول " لو فكر في إيجاد سقف يُكِنه انتقل بذهنه إلى الحائط الذي يدعمه، ثم إلى الأساس الذي يقف عليه الحائط فهو أخر الفِكرِ ثم يبدأ في العمل بالأساسِ، ثم بالحائط ثم بالسقف وهو أخر العمل. وهذا معنى قولهم: أول العمل أخر الفكرة، وأول الفكرة أخر العمل"[35].

ابن خلدون لم يبحث في الأسباب للكشف عن العلاقات بين الحوادث فقط، وإنما وظف مبدأ السببية أيضا للبحث في الأخطاء في الممارسة العلمية وبصفة خاصة في البحث التاريخي، بحيث "يضيف ابن خلدون أنه لأجل أن تسير الكتابة التاريخية في طريقة حسنة ولأجل أن تجتنب الأغلاط التي وقع فيها المؤرخون يجب –بادئ ذي بدء- أن يبحث الأسباب التي أدت إلى هذه الأغلاط"[36]. إذا فمبدأ السببية عند ابن خلدون هو مبدأ أساسي يقوم عليه المنهج العلمي عامة والتجريبي خاصة، لكشف العلاقات والروابط المختلفة بين مختلف الأحداث، كما أن التعمق في ترتيب الأسباب يسمح بالتحكم من القاعدة، فضلا عن توظيف هذا المبدأ في القضاء عن الأخطاء الشائعة بالكشف عن مسبباتها.

- مبدأ التجريب:

التجريب هو اختبار للتحقق من تأثير المثير على الظاهرة لمعرفة العلاقة التي تربط بينهما، وهو أحد أهم أساليب التحقق في البحث العلمي حديثا في العلوم الطبيعية خاصة والإنسانية عامة وقد أشار ابن خلدون لضرورة الاختبار بالتجربة لاكتشاف الحقيقة ولتمييز الصحيح من الخطأ.

وهو أسلوب موضوعي للتحقق من العلاقة السببية التي تربط بين مختلف العناصر، كما تساعد على كشف العلاقة الثابتة بين العناصر والتي تترجم إلى قوانين علمية، وقد عبر ابن خلدون عن هذه الأفكار في مقدمته، إذ قال: "للبشر بما جعل الله فيهم من انتظام الأفعال وترتيبها بالفكر كما تقدم. جعل منتظما فيهم ويسّرهم لإيقاعه على وجوهٍ سياسيةٍ و قوانينَ حكميةٍ، ينكبون فيها على المفاسد الى المصالح وعن الحسن الى القبيح، بعد أن يميزوا القبائح والمفسدة، بما ينشأ عن الفعل من ذلك عن تجربة صحيحة"[37]. إذا الرجوع للواقع المحسوس واختبار علاقاته بالتجربة، كفيل بفهم وتفسير نظام الواقع والتحكم فيه، وهو يتوافق مع ما وصل إليه جابر بن حيان في الكيمياء، بحيث صرح د.محمود السعيد الكردي "نلاحظ التطابق التام بين خطوات المنهج الخلدوني ومنهج جابر، فإن مراحل التمييز والنظر والبرهان هي نفس المراحل التي رتبها جابر في العلوم الطبيعية "[38]، وقد وضح د.زكي نجيب محمود في مرجعه 'جابر بن حيان: أعلام العرب'، المنهج التجريبي عند جابر بن حيان بطريقة مباشرة وواضحة، بحيث قال:"الفكرة الرئيسية من مباحث جابر بن حيان الكيميائية: ... قد عملته بيدي وبعقلي من قبل وبحثت عنه حتى صح وامتحنته فما كذب، فعمل باليد أولا وأعمال للعقل فيما حصلته اليد ثانيا حتى ننتهي منه إلى نظرية مفروضة ثم امتحان تطبيقي ثالثا للغرض العقلي الذي فرضناه"[39]

فملاحظة الظاهرة وتمييزها ثم التحقق والبرهنة عليها واستخلاص النتائج هي خطوات أساسية يقوم عليها المنهج التجريبي، وهي نفس الخطوات التي قدمها ابن الهيثم، بحيث جاء في مرجع 'الحسن بن الهيثم...بحوثه وكشوفه النظرية'، للدكتور مصطفى النظيف، أنه "يعرض ابن الهيثم منهجه في إيجاز فهو يقول: نبتدئ في

البحث باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات ... ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج"[40] . إذا يمكن ترتيب خطوات المنهج اعتمادا على التجريب العلمي حسب ابن خلدون وأبو حامد الغزالي وبن الهيثم، في الانطلاق بالاستقراء أي من الواقع القابل للملاحظة والتمييز لعناصره ومكوناته ثم الانتقال لمرحلة البرهنة والتحقق بالنقد وبتقديم الحجج والأدلة لإثبات صدق المقدمات وإزاحة منها الأخطاء، للوصول الى النتائج التي تعكس الحقيقة المبرهن عليها بالأدلة المقنعة، علما أن هذه الخطوات التي تعرض لها ابن خلدون في القرن الرابع عشر هي من أساسيات المنهج العلمي الحديث

- مبدأ العقلانية:

يرى ابن خلدون أن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو العقل والتفكير، وهما من أهم العناصر التي تتوقف عليها تصورات وأفعال الأفراد، وقد عبر ابن خلدون على مستويات العقل كالتالي: " وهذا هو العقل التجريبي، وهو يحصل بعد العقل التمييزي الذي تقع به الأفعال كما بيناه. وبعد هذين مرتبة العقل النظري الذي تكفل بتفسيره أهل العلوم"[41]. إذا فالعقل التمييزي الذي يصنف في المستوى القاعدي يشمل أول مهارة في التعلم وهو التمييز بين مختلف العناصر وفهم الشيئ مثلما يمليه الواقع المحسوس في شكله البسيط والساذج، أما العقل التجريبي فهو يخص مستوى أكثر نضجا، إذ يخضع العقل ما تمليه الحواس للتحليل والتمحيص والتجريب في الواقع، قصد الوصول إلى خفايا الظواهر الأكثر عمقا، في حين العقل النظري فهو يخص العلماء والمشايخ الذين لهم عمق النظر في التحليل والتفسير والتنظير. وقد اجتهدت الباحثة ناجية الوريمي بوعجيلة في كتابها المعنون 'حفريات في الخطاب الخلدوني الأصول السلفية و وهم الحداثة العربية'، في تحليل مستويات العقل عند ابن خلدون، حيث أن "الأول [العقل التمييزي] ينظم حياة الإنسان في محيطه الطبيعي، والثاني[العقل التجريبي] ينظم حياته في محيطه الاجتماعي، بما يكتسبه من تجارب، ثم يأتي العقل النظري والذي يجرد المعاني ويؤسس المعارف والعلوم"[42].

فإذا كان ابن خلدون واضحا في تفسير مستويات العقل حسب الوظيفة التي يؤديها في كل مستوى، فإن الباحثة ربطت هذه المستويات بالبيئة التي تتفاعل معها، فالمستوى التمييزي الذي يركز على ما تمليه الحواس من البيئة المحيطة بها سواء كانت طبيعية أو اجتماعية. والمستوى التجريبي هو أكثر نضجا بحيث يتعمق النظر في الخلفيات العميقة والناتجة عن التفاعل والاحتكاك بالغير، وبالتالي تكسب المعرفة من خلال العلاقات مع الغير التي كثيرا ما تسفر من تجارب الحياة الإجتماعية صور لا يمكن ملاحظتها بالعقل التمييزي. أما المستوى الثالث والذي يبلغه عامة الحكماء والعلماء، فهو المستوى التجريدي الذي يقوم على استنباط واستقراء المعارف العلمية في مختلف العلوم، والذي غالبا ما يتوصل الى بناء نظريات وقوانين،علما أن القدرات العقلية للأفراد مستويات، فمنه من يبلغ المستوى التمييزي ومنه من يبلغ المستوى التجريبي ومنه من يبلغ المستوى التجريدي إذا توفرت فيه الحكمة والذكاء والبصيرة.

- المنهج العلمي:

لقد ذكرنا سابقا أن ابن خلدون قد اعتمد على عدة مصادر لتغذية معارفه العلمية،منها المباشرة نتيجة المعايشة والملاحظة الميدانية اللتان طبقهما من خلال تنقلاته المستمرة وكانتا من العناصر الأساسية المساهمة في نضجه الفكري والعلمي، وقد اعتبر عبد القادر عرابي "حياة ابن خلدون مدرسة استطلع من خلالها مجتمع عصره، فلاحظ حوادث الأيام وجمعها وصنفها وكشف عن عللها وأسبابها، مدللا من ذلك على طبائعها وقوانينها"[43] ، الى جانب اعتماده على مصادر أساسية أخرى في

اكتساب المعارف بالرجوع لما أنتجه العلماء السابقون كأبو حامد الغزالي وبن الهيثم وجابر بن حيان وغيرهم من المفكرين الذين تأثر بهم، الى جانب ملازمة من عايشهم أمثال أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي. تعدد مصادر حصوله على المعرفة ساهمت في إضفائه الفعالية على ممارساته العلمية، وعلى التصورات التي يحملها حول الكيفية التي يؤدى بها هذا النشاط الفكري.

حتى تكون الطريقة المعتمد عليها في الوصول للمعارف العلمية فعالة، "ابتكر ابن خلدون منهجا جديدا يقوم على استقراء واقع عصره ومجتمعه معتمدا في ذلك على ملاحظاته ومشاهداته وخبراته. لقد نحا منحى تجريبيا، إذ لاحظ حياة وسلوك الجماعات التي عاش بين ظهرانيها واستقراء القوانين التي تحكمها من خلال مقارنته للظواهر الاجتماعية التي لاحظها داخل المجتمع وفي المجتمعات الأخرى"[44] ، علما أن هذه الخطوات التي اعتمد عليها منهج ابن خلدون كانت شائعة لدى علماء عصره، كجابر بن حيان وبن الهيثم، وأبو حامد الغزالي، وابن الرشد، وابن تيمية وغيرهم من العلماء، إلا أن منهجية ابن خلدون "تشكل منعطفا جديدا في فلسفة المعرفة ونظرياتها، لا لأن ابن خلدون أول من استخدم هذا المنهج في دراسة العمران البشري، وإنما لأن المقدمة تعد دراسة ميدانية تجريبية"[45] ،بحيث تم انجازها اعتمادا على الخطوات والقواعد المنهجية التي سطرها أثناء إعدادها، كما غذاها من ملاحظاته الميدانية ومن معايشته لمختلف الأحداث التي صنفها في فصول وأبواب في مقدمته.

عبقرية ابن خلدون لم تقتصر على درجة التحرر من التصورات السائدة في زمنه بإخضاعها للنقد والتقييم، قصد إبراز الأخطاء التي كانت شائعة لدى علماء عصره، ولا بترتيب خطوات منهج البحث، وإنما في كيفية تطبيقه، فالتقرب الاستقرائي في البحث يقوم على دراسة الظاهرة الموجودة في الواقع أو المادة القابلة للملاحظة للكشف عن خصائصها وعلاقاتها بالظواهر الأخرى، والتحقق منها بالتجريب والمقارنة للوصول الى الحقيقة الموجودة في الواقع. علما أن ابن خلدون قد طبق منهجه لتصحيح الأخطاء الشائعة في كتابة التاريخ المنتشرة لدى مؤرخين عصره، إلى جانب تطبيقه في بحوثه حول التجمعات البشرية مما ساعده على اكتشاف علم العمران البشري أي علم الاجتماع الذي لم يكن معروفا آنذاك.

نظم ابن خلدون المنهج العلمي بقواعد يمكن حصر أهمها في ما يلي[46] :

- القاعدة الأولى: وهي قاعدة النقد الباطني السلبي، وتقوم على التحري عن مصدر الأخبار وطرق التثبت من صدق المؤلف، ومن عدم انخداعه و وقوعه في الخطأ والأغلاط.

- القاعدة الثانية: وتتمثل في الابتعاد عن التشيع والتعصب للآراء والأحكام المرتجلة والقبلية والتزام جانب الموضوعية في عرض وقائع العمران.

- القاعدة الثالثة: وهي موسوعية المعرفة عند المؤرخ، إذ يتعين عليه الإلمام بقواعد السياسة وطبائع العمران والملك وتاريخ الأمم، والاقتصاد والسياسة في الاعصار المختلفة.

- القاعدة الرابعة: هي قاعدة التشكك في الأخبار التي ترد إلى أسماع المؤرخ. وقد نهج ابن خلدون منهجا من الشك جاء الشك الديكارتي فيما بعد أشبه ما يكون به.

- القاعدة الخامسة: علينا أن نعتمد على المعرفة العقلية باعتبارها احد المصادر الأساسية للمعرفة فننظر في الأخبار، ولا نأخذ إلا بما يقبله العقل ونرفض ما دونه.

- القاعدة السادسة: يقوم المنهج الخلدوني على تحليل الحوادث التاريخية ومعرفة عللها. ولما كان لكل حادث محدث، فلا بد إذا وقع الحادث أن تعقبه النتيجة، فثمة علاقة تلازم في الحدوث.

- القاعدة السابعة: إن أمانة الباحث والشك والسببية والعقلانية إنما هي مبادئ وقواعد

أساسية للبحث الاجتماعي، غير أن الأهم في ذلك كله هو العمران البشري، إنه مدخل منهجي، وإطار معرفي، فمن خلال تحليله وتعليله يستقرئ ابن خلدون القوانين العامة للاجتماع الإنساني.

تجربة ابن خلدون وخبرته في البحث، الى جانب محاولاته المستمرة للوقوف على أسباب الأخطاء التي وقع فيها العديد من مفكرين عصره، دفعه إلى تنظيم البحث بهذه القواعد السارية المفعول في البحث العلمي عامة، وفي البحوث الاجتماعية والإنسانية خاصة، سواء في التاريخ باعتباره باحثا في هذا الميدان، أو في العلوم الاجتماعية باعتباره مؤسسا لعلم العمران البشري المعروف حديثا بعلم الإجماع. فإسهاماته المنهجية سمحت باكتشاف الأخطاء الشائعة في الممارسة العلمية، وكيفية تجنبها للوصول إلى اكتشاف الحقيقة مثلما هي موجودة في الواقع، وإذا رجعنا لهذه القواعد وبحثنا في فعاليتها في الممارسة العلمية في زمننا نستخلص ما يلي:

- بالنسبة للقاعدة الأولى: الخاصة بالنقد الباطني السلبي ضروري في البحث العلمي، بحيث تسمح بالكشف عن الأخطاء التي قد يقع فيها الباحث وتؤثر سلبا على نتائج بحثه، وفي هذا الصدد يرى Maurice Angers "أن للنقد دور أساسي في البحث العلمي بحيث يساهم في تحقيق الموضوعية، فقد يتبع الباحث طريقا خاطئا لكن نقد الباحثين يساهم في إبراز هذا الخطأ، فالنقد هو مدعما وليس عائقا للنجاح"[47]. لهذا فالنقد أثناء الممارسة العلمية، يمكن أن يطبق من طرفين، فالأول يطبقه الباحث بحيث لا يقبل كل ما يقدم له سواء وثائقيا أو شفويا، لهذا يجب النقد والتحقق المبدئي من المعطيات الجاهزة. أما الطرف الثاني الذي يطبق في النقد، هو المختصين الذين يقدمون انتقادات لممارساتنا لتدارك الأخطاء التي وقعنا أو قد نقع فيها والتي قد تشوه نتائج البحث.

- أما بالنسبة للقاعدة الثانية: المتعلقة بالالتزام بالموضوعية في عرض الحقائق، فقد وضح د.مغربي أن "ابن خلدون لا يدين كل المعرفة وإلا يصبح متناقض حتى مع روح عمله، لكنه يعارض بعض أشكال المعرفة بمعنى المعرفة السابقة والذاتية التي تتعارض مع العلم"[48] ، وذلك لتزييفها للحقائق لأسباب عدة قد تكون شخصية أو إيديولوجية أو لغيرها من الأسباب. علما أن قاعدة الموضوعية أساسية في المنهج العلمي الحديث وقد تطرق إليها الباحث الفرنسي Émile Durkheim عند تحديده لقواعد المنهج في علم الاجتماع، بحيث "حدد أول قاعدة أساسية في 'النظر في الحقائق الاجتماعية كأشياء' وهذا لا يعني اعتبار الحقائق الاجتماعية أشياء مادية، وإنما نتعامل معها كما لو كانت أشياء مادية"[49] حتى يتم التحرر من تدخل الذاتية في البحث.

- فيما يخص القاعدة الثالثة: المتعلقة بموسوعية المعرفة، فقد تنبه ابن خلدون للارتباط الموجود بين مختلف الظواهر في العمران البشري، لهذا لا يمكن دراسة ظاهرة خارج سياقها العام، وليتم ذلك يجب الإلمام بالمعارف لما يحيط بالظاهرة المدروسة وبعلاقاتها بمختلف الظواهر، لهذا يرى ابن خلدون أنه "مهما كانت الظاهرة فلا يمكن تمييزها أو تحديدها أو تعيينها، إلا إذا تم تناولها في إطار الارتباط الوثيق بالأحداث الأخرى في سياقها العام"[50].

وهو نفس المبدأ المطبق في ميدان العلوم الاجتماعية الحديثة وذلك راجع لعلاقة التأثير والتأثر بين مختلف الظواهر وحتى بين تخصصات العلوم الاجتماعية، إذ يوجد دائما ترابط بينها باعتبارها ميادين أساسية تقوم عليها الحياة الاجتماعية، بحيث يقول دوركايم في محاولته للكشف عن كيفية تفسير الحقائق الاجتماعية "أنه يجب تفسير الحياة الاجتماعية انطلاقا من طبيعة المجتمع"[51]،وبالتالي فإن دراسة ظاهرة معينة يستلزم الإحاطة بالظواهر الاجتماعية التي تؤثر وتتأثر بها للوصول إلى عمق الحقيقة.

- وبالنسبة للقاعدة الرابعة: التي يقوم عليها المنهج العلمي الخلدوني والمتمثلة في قاعدة الشك، فقد تبناها رنيه ديكارت(1596-1650) كمبدأ منهجي للوصول إلى الحقيقة بعد

البرهنة العقلية عليه. أما في ممارسة البحث العلمي في عالمنا المعاصر فإن الشك يعتبر وسيلة لتجنب الوقوع في الأخطاء وللتحرر من الأفكار المسبقة بحيث وضح Maurice Angers هذه الفكرة عندما كتب أن "الشك لا يعني لا نؤمن بأي شيء، وإنما على الباحث أن لا ينس بأن في الممارسة العلمية كل نتيجة محققة هي مؤقتة، لهذا يجب التساؤل والاستمرار في التساؤل وإجراء عدة ملاحظات أو تجارب موجهة بالتساؤلات، بهذا يكون البحث أكثر فاعلية"[52] .

- وفيما يخص القاعدة الخامسة، المتعلقة بالعقلنة وبالرجوع للعقل في البحث، فإننا لا حظنا سابقا أن ابن خلدون قد رتب المنطق في مقدمة العلوم العقلية لاعتماده على العقل في البرهنة وفي القبول والرفض، علما أن هذه القاعدة قد تبناها عدة فلاسفة كرينيه ديكارت الذي يرى أن الحقيقة يمكن بلوغها بالعقل الخالص. أما في الممارسة العلمية الحديثة، فإن الممارسة العلمية تستلزم إحكام العقل من بداية البحث إلى نهايته، والتفكير هو أساس أي ممارسة إنسانية. أما بالنسبة لأهمية التفكير في البحث العلمي، يرى Angers "أن التفكير المؤدي للتجريد هو خطوة أساسية في العلم، بحيث لا يمكننا التقدم نحو الاكتشاف العلمي إن لم نبن تصورات أولية من اجل مسائلة الواقع المدروس، كما يسمح التفكير أيضا بتحليل وتفسير الواقع"[53]، وهي نفس أفكار ابن خلدون التي تناولناها سابقا والتي خصت الكائن البشري بممارسة العلم لتفرده بالعقل وبالقدرة على التفكير.

- أما بالنسبة للقاعدة السادسة :التي بني على أساسها المنهج العلمي الخلدوني والمتمثلة في الترابط بين الحادث والمحدث أي بين السبب والنتيجة، فإن عبد القادر عرابي حاول قراءة هذا المبدأ عند ابن خلدون وتفسيره، حيث قال: "ينظر ابن خلدون إلى المجتمع نظرة كلية تقوم على أن السلوك الإنساني تحكمه القوانين التي تتولد عن تطور العمران البشري، فالتاريخ البشري فعالية حية، تلتئم في نطاقه وقائع الماضي والحاضر في إطار ترابط عالى وطردي واستقرائي علمي، يجعل وقائع العمران البشري يرتبط بعضها بالبعض من خلال القوانين الاستقرائية وتشكل نسقا علميا متكاملا"[54].فالارتباط بين الوقائع ليس من الضروري أن يحدث في نفس الزمن، وإنما حتى الوقائع عبر مختلف المراحل التاريخية يمكن أن ترتبط بالعلاقة السببية، لهذا لكل حدث محدث له وهو قاعدة أساسية لتنظيم الأحداث وتسمح بالتنبؤ. على هذا الأساس فإن مبدأ السببية مهم في البحث العلمي الحديث، لهذا نجد البحوث التفسيرية كثيرا ما تسعى إلى اكتشاف العلاقات والارتباطات السببية بين مختلف المتغيرات، حتى أن البحوث الاجتماعية دعمت بمقاييس إحصائية لقياس درجة الارتباط بين المتغيرات كمعامل بيرسون للارتباط ومعامل سبيرمان واختبار كاف التربيع وغيرها من المقاييس الإحصائية المدعمة للبحوث التفسيرية.

- وبالنسبة للقاعدة السابعة: المتعلقة باستقراء القوانين العامة للاجتماع البشري، فقد أعطاها ابن خلدون نصيبا من التفسير، بحيث لخصها عبد القادر عرابي كالآتي: " التفسير التاريخي الخلدوني يستمد موضوعيته من قوانين العمران البشري، تلك القوانين التي لها منطقها وترابطها العلي، وتأخذ مجراها بموضوعية وكأنها قوانين طبيعية. فالجبرية الاجتماعية لا تقل شأنا عن الجبرية الطبيعية"[55]. فرغم صعوبة تطبيق مبدأ الجبرية على الظواهر الاجتماعية، إلا أن ابن خلدون يماثل الجبرية في المجال الاجتماعي بالجبرية في المجال الطبيعي، بحيث هدف إلى التأكيد على العلاقة الموضوعية التي تنظم سير الأحداث، فبتوفر نفس الأسباب يمكن توقع نفس النتائج، على هذا الأساس بنا ابن خلدون نظريته التاريخية في تفسير التاريخ. وإذا كان الوصول إلى القوانين التي تتحكم في الظواهر هي غاية البحوث في مجال التخصصات العلمية والدقيقة، فإن في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية، التوصل إلى بناء النظريات العلمية هي من أهم أهداف البحوث العلمية. وقد عرفت النظرية بأنها "قبل كل شيء هي وسيلة لإعطاء معنى للمعارف، ويمكن تحديدها كمجموعة من

الاقتراحات المرتبطة منطقيا، وتأطير عددا من الحقائق التي تم ملاحظتها، إلى جانب تشكيل شبكة من التعميمات التي تسمح بتقديم تفسيرات لبعض الظواهر الاجتماعية"[56]. فبلوغ هذا المبدأ الذي يسمح بتفسير الواقع انطلاقا من تصورات نظرية يبقى هدفا يسعى الباحث الاجتماعي إلى تحقيقه.

هذه القواعد التي بني ابن خلدون على أساسها المنهج العلمي ولا زالت تشكل أساس البحث العلمي الحديث، قد طبقها في ممارساته العلمية بصفة عامة وفي العلوم الإنسانية بصفة خاصة، وتلخص فكره العلمي الذي يقوم على أسس ومبادئ البحث العلمي الحديث، فالموضوعية والابتعاد عن الأحكام الذاتية في الوصول للحقيقة وسعة المعرفة والتشبع بالثقافة والوعي العلمي أداة مهمة للبحث، إلى جانب الالتزام بالعقلنة وبمبادئ العقل مهم في البحث قصد تفادي الأخطاء التي تشوه الحقيقة، والوصول إلى كشف العلاقات السببية بعد التحليل والتفسير والاستقراء من الملاحظة والتجربة القوانين والنظريات التي تنظم الأحداث.

- خاتمة:

تناول ابن خلدون للممارسة العلمية تمت من جانبين: الأول خاص بربطه هذه الممارسة بالكائن البشري باعتباره كائن عاقل ويتمتع بالقدرة على التفكير مما أهله لممارسة العلم،غير أن لهذه الممارسة شروط أساسية لا يمكن للفرد أن يتوغل فيها إن لم تتوفر، أهمها أن يمتلك ملكة تبرز في الاستعداد الفكري والمقدرة والمهارة التي ترتقي بمستوى الوعي والفهم إلى عمق الحقائق، ويمكن أن تنضج هذه الملكة بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية. كما تناول الممارسة العلمية وعلاقتها بالتجمعات البشرية، وتوصل إلى أن لطبيعة العمران البشري دور في تقدم العلم، فالعمران البدوي لا يشجع العلم لاهتمام الأفراد بالمعاش والاسترزاق، أما في العمران الحضري فإن الكثافة السكانية وبروز الصنائع المختلفة، جعلت من العلم حاجة ملحة لتحسين ظروف العيش، مما أدى إلى الاهتمام بالممارسة العلمية. أما الجانب الثاني الذي تناوله حول الممارسة العلمية، هو محاولته لوضع قواعد علمية ومنهجية لتنظيم هذه الممارسة،لتخليصها من الأخطاء التي تشوه الحقيقة.

ابن خلدون عايش عدة عوامل ساهمت في نضجه الفكري، أهمها هي حياة الترحال التي عرفها في دول شمال إفريقيا والأندلس وبلاد الشام. فقد كانت ميدانا خصبا للتعلم، بحيث كانت بمثابة بحث إمبريقي قائم على الملاحظة والتجربة، والتنقيب في آثار المفكرين الذين سبقوه من أفلاطون وأرسطو، الى جابر بن حيان وبن الهيثم، وأبو حامد الغزالي، وابن الرشد، وابن تيمية وغيرهم من المفكرين. الى جانب مصاحبته لمن عرف بذكائه في زمنه أمثال لسان الدين بن الخطيب، وملازمته لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي المعروف بتفوقه في علم المنطق، هذه الأرضية ساهمت في توسيع معارفه، وفي تغذية فكره.

وقد قدمت مقدمة ابن خلدون، وهي مقدمة الكتاب المسمى كتاب 'العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر'، صورة لبراعة ابن خلدون الفكرية والعلمية في عدة تخصصات عقلية كانت أم نقلية، وفي كيفية تناوله لكل من علم التاريخ وعلم العمران بالتحليل اعتمادا على مبادئ العلم التي حددها . ويظهر ذكاءه أيضا في تمكنه من تقديم قواعد علمية للممارسة العلمية تطبق في أي تخصص، لكن بالتحفظ في العلوم الإلهية، وهو بذلك يوافق فكرة أبو حامد الغزالي الذي يرى أن القدرات العقلية تبقى محدودة لقصورها على إدراك الروحانيات والغيبيات التي لا تدرك ولا يبرهن عليها إلا بالرجوع الى المصادر

الشرعية، في حين نشاط العقل لا يدرك إلا ما هو محسوس ويبرهن عليه بالتجربة ليتوصل إلى المسببات التي تنظم العلاقات في الطبيعة وفي التجمعات البشرية.

إذا قارنا مبادئ العلم وقواعد المنهج عند ابن خلدون بالقواعد المطبقة في البحث العلمي المعاصر نلاحظ أن نفس القواعد مفروضة على الممارسة العلمية في كل التخصصات، سواء في العلوم الإنسانية والاجتماعية أو في العلوم الطبيعية، فالارتباط بين السبب والنتيجة تفطن إليها ابن خلدون وهي أهم مهارة تبنى على أساسها القوانين الوضعية الحديثة. فإذا كان ابن خلدون قد أشار لضرورة البرهنة بالملاحظة وبالتجربة لاكتشاف الحقيقة وتجاوز الأخطاء، فإن التجربة والملاحظة هي تقنيات أساسية لا يمكن تجاهلها في المنهج العلمي الحديث، وهي عناصر موضوعية تسمح بالتحقق من العلاقة السببية التي تربط بين مختلف العناصر والحوادث. أما بالنسبة لمبدأ العقلانية، فإن العلم الحديث لا يقبل بالمسلمات وبالفرضيات التي لا تتوفر فيها المنطقية والعقلنة لاستحالة البحث فيها، فإحكام العقل ضروري في أي ممارسة علمية. تطرق أيضا ابن خلدون للنقد والتمحيص والشك في ما هو موجود تجنبا الوقوع في الأخطاء التي وقع فيها العديد من المؤرخين، نتيجة لنقلهم للأحداث مثلما قدمت لهم دون تمحيص ولا تحقق في مصداقيتها، مما ثر سلبا على النتائج التي قدموها، علما أن النقد في البحث العلمي المعاصر يلعب دورا أساسيا في تحقيق الموضوعية التي يتوقف عليها دقة النتائج.

كما سبق ابن خلدون الباحثين المعاصرين في الاعتماد على الاستقراء كأسلوب للبحث، انطلاقا من ما تقدمه الحواس بالملاحظة والتي تتم بالعقل التمييزي ثم البرهنة بالتجريب ويتم ذلك اعتمادا على العقل التجريبي، وفي المرحلة الأخيرة يتم بلوغ مستوى التجريد الذي يحلل العلاقات التي تم التوصل إليها، مما يفتح المجال للوصول إلى القوانين والنظريات المفسرة للواقع المدروس، وهو نفس الأسلوب المطبق في البحوث العلمية بالانطلاق من الواقع لتفسير الواقع بالبرهنة بالأدوات الملائمة قصد فهم الواقع.

ما يمكن أن نخلص إليه في هذا المقال، هو الاعتراف بأن ابن خلدون كان علميا في تنظيم الممارسة العلمية بقواعد وأساليب فعالة، ومدعمة بالملكة التي لا يمكن فصلها عن الروح العلمية، التي تعتبر من الأساسيات التي يتوقف عليها نجاح الممارسة العلمية في كل التخصصات في زمنه وفي عصرنا الحديث.

- الهوامش:

1 - عبد الرحمان ابن خلدون،(1997)، *مقدمة ابن خلدون: وهي مقدمة الكتاب المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*، دار الفكر العربي، بيروت، ص 305.

2- نفس المرجع، ص 305

3- محمد الجوهري ومحسن يوسف،(2008)، *ابن خلدون انجاز فكري متجدد*، مكتبة الإسكندرية، مصر، ص12.

4- الصغير بن عمار، (1984)،*الفكر العلمي عند ابن خلدون*، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص114

5-عبد الرحمان ابن خلدون، *مقدمة ابن خلدون*، مرجع سابق، ص 305.

6- نفس المرجع ، ص 305.

7- نفس المرجع، ص .305

8- نفس المرجع، ص 306.

9- نفس المرجع، ص 306.

10- نفس المرجع، ص 284.

11- عزيز العظمة،(1981)،*ابن خلدون و تاريخه*، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ص.153.

12- نفس المرجع، ص 308.

13- نفس المرجع ،ص .308

14- عبد الرحمان ابن خلدون، *مقدمة ابن خلدون*، مرجع سابق، ص27.

15- محمد الجوهري و محسن يوسف، مرجع سابق، ص29-30

16 - عبد الرحمان ابن خلدون، *مقدمة ابن خلدون*، مرجع سابق، ص309.

17 - نفس المرجع ،ص 352-353 .

18 - نفس المرجع، ص 353 .

19- Abdelghani MEGHERBI ,(2010), *La pensée sociologique D'IBN KHALDOUN*, Casbah Editions, Alger, p.95.

20- Ibid. p. 92-93.

21- Ibid. P.93.

22 - د.علي الوردي، (1994)، *منطق ابن خلدون في ضوء حضارته و شخصيته*، ط2، دار كوفمان للنشر، بيروت،ص63.

23 - عزيز العظمة، مرجع سابق، ص164.

24 - د.علي الوردي ،مرجع سابق، ص66 .

25 - عزيز العظمة، مرجع سابق، ص155

26 - نفس المرجع، ص156.

27 - نفس المرجع، ص157.

28 - نفس المرجع، ص157.

29 - عبد الرحمان ابن خلدون، *مقدمة ابن خلدون*، مرجع سابق، ص 331 .

30 - Abdelghani MEGHERBI, op.cit.p.115.

31 - Abdelghani MEGHERBI, op.cit.p.117.

32 - د. محمود السعيد الكردي، (1984)، *ابن خلدون: مقال في المنهج التجريبي* ، المنشأة العامة للنشر و التوزيع و الإعلان، ليبيا،ص.225

33- نفس المرجع، ص 233.

34- عبد الرحمان ابن خلدون، *مقدمة ابن خلدون*، مرجع سابق، ص .331

35 - نفس المرجع ، ص 331-.332

36- محمد الجوهري و محسن يوسف،(2008)، *ابن خلدون انجاز فكري متجدد* ، مكتبة الإسكندرية، مصر، ص58

37- عبد الرحمان ابن خلدون، *مقدمة ابن خلدون*، مرجع سابق، ص .235

38- د. محمود السعيد الكردي، *ابن خلدون: مقال في المنهج التجريبي* ، المنشأة العامة للنشر و التوزيع و الإعلان، ليبيا، 1984، ص.235

39- د. زكي نجيب محمود، *جابر بن حيان :أعلام العرب*، رقم3، ص61، نقلا عن: د.محمود سعيد الكردي، مرجع سابق، ص.235

40- د. مصطفى نظيف، *الحسن بن الهيثم... بحوثه و كشوفه النظرية*، (1949)،ج1، ص24-26، نقلا عن: محمود السعيد الكردي، *ابن خلدون: مقال في المنهج التجريبي*،(1984)، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، ص235.

41 - عبد الرحمان ابن خلدون، *مقدمة ابن خلدون*، مرجع سابق، ص 333

42 - ناجية الوريمي بوعجيلة،(2015)، *حفريات في الخطاب الخلدوني: الأصول السلفية و وهم الحداثة العربية*، المركز الثقافي العربي، المغرب، ص .53

43 - عبد القادر عرابي، (2008)،"قراءة سوسيولوجية في منهجية ابن خلدون"، *الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج و المفاهيم و الازمة المعرفية*، سلسلة كتب المستقبل العربي 31، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ص55

44 - نفس المرجع، ص47.

45 - نفس المرجع، ص47

46 - نفس المرجع، ص49-53.

47 - Maurice Angers,(1997), *initiation pratique à la méthodologie des sciences humaines*, Casbah éditions, Alger, p.12.

48 - Abdelghani MEGHERBI, op.cit, p.95

49 - Madeleine Grawitz,(2001), *Méthodes des sciences sociales*, éd.11, éditions Dalloz, Paris, p.93.

50 - Abdelghani MEGHERBI, op.cit, p.99.

51 - Madeleine Grawitz, op.cit, p.92.

52 - Maurice Angers, op.cit, p.7

53 - Ibid. p.9

54 - عبد القادر عرابي، مرجع سابق، ص46.

55 - نفس المرجع، ص46.

56 - Sous la direction de Benoit Gautier,(2009), *RECHERCHE SOCIALE de la problématique à la collecte des données*, ed5, Québec, Presse de l'Université de Québec, p.112

- قائمة المراجع:

1- ابن خلدون عبد الرحمان ،(1997)، *مقدمة ابن خلدون: و هي مقدمة الكتاب المسمى كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم والبربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*، دار الفكر العربي، بيروت.

2- بن عمار الصغير ، (1984)،*الفكر العلمي عند ابن خلدون*، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

3- بوعجيلة ناجية الوريمي ،(2015)، *حفريات في الخطاب الخلدوني: الأصول السلفية و وهم الحداثة العربية*، المركز الثقافي العربي، المغرب.

4- الجوهري محمد و محسن يوسف،(2008)، *ابن خلدون انجاز فكري متجدد* ، مكتبة الإسكندرية، مصر.

5- العظمة عزيز،(1981)،*ابن خلدون و تاريخه*، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت .

6- عرابي عبد القادر ، (2008)،"قراءة سوسيولوجية في منهجية ابن خلدون"، *الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج و المفاهيم و الازمة المعرفية*، سلسلة كتب المستقبل العربي 31، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان.

7- الكردي محمود السعيد ، (1984)، *ابن خلدون: مقال في المنهج التجريبي* ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع و الإعلان، ليبيا.

8- نظيف مصطفى ، *الحسن بن الهيثم... بحوثه و كشوفه النظرية*، (1949)،ج1، ص24-26، نقلا عن: الكردي محمود السعيد ، *ابن خلدون: مقال في المنهج التجريبي*،(1984)، المنشأة العامة للنشر و التوزيع والإعلان، ليبيا.
9- الوردي علي ، (1994)، *منطق ابن خلدون في ضوء حضارته و شخصيته*، ط2، دار كوفمان للنشر، بيروت.
10- Benoit Gautier,(2009), *RECHERCHE SOCIALE de la problématique à la collecte des données*, éd.5, Presse de l'Université de Québec, Canada.
11- Madeleine Grawitz,(2001), *Méthodes des sciences sociales*, éd.11, Editions Dalloz, Paris.
12- Maurice Angers,(1997), *initiation pratique à la méthodologie des sciences humaines*, Casbah Editions, Alger, p.12.
13- MEGHERBI Abdelghani, (2010), *La pensée sociologique D'IBN KHALDOUN*, Casbah Editions, Alger.

Classification des sciences ; Les règles méthodologiques.
Ibn Khaldoun ; La pratique scientifique ; Rassemblements humains ;
Classification des sciences ; Les règles méthodologiques.